موقف المستشرقين من اللغة العربية: غولدتسيهر[1] أنموذجاً: دراسة نقدية

صالحة حاج يعقوب

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة العالمية، ماليزيا

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى وضع مزاعم إجنتس غولدتسيهر حول بدايات الدراسات اللغوية العربية تحت المجهر؛ فطبقاً لغولدتسيهر لم تكن أشكال حروف العلة القصيرة (الحركات) عربية أصيلة، بل هي - برأيه - مأخوذة من السريانية، وزعم الشيء نفسه فيما يتعلق بأقسام الكلم الثلاثة: الاسم والفعل والحرف؛ حيث افترض مسبقاً أنها من علوم أرسطو في كتاب التفسيرات، وأن نسبتها إلى علي (كرم الله وجهه) باطلة؛ حيث شرح غولدتسيهر هذه الصلة بذكر الخلافات الحاصلة بين علماء المدارس المختلفة في القرن الأول الهجري، مع إشارة خاصة إلى الخلافات العقدية بين المرجئة والقدرية؛ لأنّه في الوقت نفسه كانت تعقد مناظرات لاهوتية عن معتقدات دينية مختلفة بين المسيحيين الشرقيين استناداً إلى تعاليم يوحنا الدمشقي. إن هذه المناظرات - كما يرى غولدتسيهر - مرتبطة لكونها حاصلة في الزمان نفسه، فضلاً عن إيمانه بأن القديس يوحنا الدمشقي لا بدّ أن يكون قد أخذ هذه الأفكار من أرسطو. ولما لم يتحدث أي مصدر عربي عن هذه الصلة بنى شكوكه الخاصة التي مفادها أن المصادر الإسلامية رفضت الإقرار بأخذها هذه الأفكار من المسيحية. إن هذه الدراسة غرضها التحقق من مصداقية مزاعمه بخصوص أصل قواعد اللغة العربية ونحوها، والتحقق من حيادية غولدتسيهر العلمية، وستعتمد الباحثة في ذلك منهجاً نظرياً ونقدياً استناداً إلى دراسات لغوية. وللوصول إلى حكم متوازن بخصوص هذا النزاع، فإن البنية اللغوية والخلفية التاريخية تم تحليلهما في هذه الدراسة كذلك.

المقدمة

في عام 1868م حصل غولدتسيهر على منحة من إيوتوفوس بارون جوزيف، وزير التعليم والثقافة الهنغاري، لتحليل مخطوطات عربية، وحصل على شهادة الدكتوراه في لبيزغ عام 1870م، تلا ذلك دراسته المكثفة للغة العربية التي مكنته من حيازة معرفة شاسعة بالمخطوطات العربية، وحاز شهرة كبيرة على أنّه الخبير الأكثر معرفة بالمخطوطات العربية[2]، فضلاً عن أن تتلمذه على يد اللغوي الشهير إتش. إل. فلايشر[3] جعله منجذباً نحو دراسة علم اللغة العربية، وهذا ما ذكره نفسه حين قال: "كنت واقعاً تحت إغراء الجانب التاريخي للغة أكثر من الجانب الوصفي"[4]. إن اهتمامه الواضح بالجانب التاريخي للأدب ظل إحدى أهم سمات اهتماماته البحثية طوال حياته؛ إذ كان التركيز على التحقيق في أصول النحو العربي أحد أهم موضوعاته الرئيسة، فقد نشر بحوثاً عن عدد من المخطوطات العربية المهمة في هذا المجال، نحو: المزهر للسيوطي، والألفاظ لابن السكيت، والإنصاف في مسائل الخلاف، إلخ[5]. لقد كان غولدتسيهر أحد أهم المستشرقين ذوي التأثير في وقته، وكانت آراؤه تعد مرجعاً في هذا المجال، بل كان هناك ظاهرة شائعة مفادها أن كل شيء في الدين الإسلامي وعلومه وثقافته لا بدّ من وجود مصدر له في الحضارة الغربية، وأن الحضارة الإسلامية لم تكن أصيلة أو مستقلة في حد ذاتها، وانطلاقاً من هذه القناعة قام غولدتسيهر بدراسة نقدية لأعمال أبي الأسود الدؤلي (688م)، أظهرت أن أبا الأسود هو مؤسس النحو العربي، لا كما يزعم التراث الإسلامي من أن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) هو من وضع اللبنة الأولى في علم النحو، ولم يتوقف غولدتسيهر عند ذلك الحدّ بل أكّد أنّ الاختلافات في التقسيمات الثلاثة للكلم لم تنشأ في الحجاز[6] (ولا يمكن أن تكون كذلك)، مفترضاً أن العالم العربي لم يكن قادراً على إبداع فكري فعلي. لقد استنتج أن أصول النحو العربي يجب أن تكون مأخوذة من خارج حدود النحو العربي، ويمكن القول إنه كان يفترض أن النصوص القرآنية ذاتها تأثرت بعوامل خارجية مساعدة[7].

موقف غولدتسيهر من النحو والقياس والشذوذ

أولاً - النحو العربي

ما يقوله غولدتسيهر هو أن النحو العربي لم يتأثر بالنحو الإغريقي فقط، بل تأثر بطريقة التفكير الإغريقي أيضاً، حيث تبنى العرب - بحسب مزاعمه - المصطلحات الإغريقية في مفاهيم اللغة، والتقسيم الألفبائي، وتحليل أجزاء الجمل، والقواعد النحوية، وافترض أن هذه المفاهيم اللغوية لم تكن مأخوذة من الإغريقيين بصورة مباشرة، ولكن عبر السريانية التي كانت لغة محكية في المناطق المحصورة بين بلاد العرب وأوربا، وأشار غولدتسيهر إلى فكرة نولديك الذي كان قد ربط العربية بالسريانية من قبل[8]. افترض المستشرق رينان أن النسخة المحفوظة والأصلية للقرآن أصبحت نقطة محورية وأساساً لكل دراسة من الدراسات اللاحقة المهتمة بقواعد اللغة العربية الصحيحة والنحو، إنّه القرآن العربي الذي ألهم أعمال أوائل النحاة العرب، ووفقاً لرينان فإن استخدام القواعد النحوية والقواعد التي وضعت لا يظهر أدنى ارتباط بأي عامل أجنبي مؤثر، حيث صرح رينان قائلاً في هذا الشأن: "وأخيراً فيما يتعلق بالعلوم الأخرى فإن العرب أنفسهم يعترفون بما يدينون للإغريق به؛ فهم مقتنعون بأن قواعد اللغة امتياز حفظه الرب لهم، ومن العلامات المؤكدة على التفوق على بقية الأمم كما يعتقدون"[9]. انتقد غولدتسيهر استنتاجات رينان معلقاً بقوله: "ليس السؤال المطروح هل القواعد العربية تعدّ نظاماً نحوياً معيناً تم الاستيلاء عليه، بل السؤال هل وصل العرب إلى المفاهيم اللغوية الأساسية بناءً على أسس التفكير التي اتبعتها الأمم في تأمل طبيعة لغاتها من تحليل لأجزاء الجمل والكلمات، واستنباط الاستخدام الصحيح من البيانات فيشكل قواعد في غياب تأثير خارجي، أو باختصار هل هناك أية عوامل في نهضة الوعي النحوي عند العرب لم توجد في حياة العرب وأذهانهم؟"[10].

[11]وفي رأينا القول إن النحو العربي تأثر بالتفكير الإغريقي ليس له الأساس القوي؛ لأن قضية الابتكار في حروف العلة القصيرة (الحركات) كانت بأيدي العرب، فقد قال أبو الأسود للكاتب:

"إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعت شيئاً من ذلك غنة فاجعل مكان النقطة نقطتين"[12].

إذا قبلنا وجهات نظر غولدتسيهر فإننا ما زلنا بحاجة إلى شرح وسائل النقل اللغوية بين البصرة وسورية، فليس هناك من شك في أن العالم المسيحي والعالم الإسلامي التقيا في دمشق، تلك المدينة التي كان يوحنا الدمشقي يعلّم فيها، لكنّ بعض المستشرقين - على كل حال - افترضوا وجود اتصال صامت بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي بصورة مباشرة - وبشكل غريب أحادي الجانب - صورته تتمثل في نقل المعارف من الغرب إلى الشرق. إن المصادر التاريخية لا تصرح بأية علاقة أو تبادل حاصل بين علي بن أبي طالب ويوحنا الدمشقي، في حين يصر غولدتسيهر على وجود ذلك، معتمداً في ذلك على حقيقة أن الإسلام لا يمنع تبادلاً من هذا النوع، في مواضيع لا تمس العقيدة، كما هو منصوص عليه في القرآن الكريم:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾[13].

إن الوحي القرآني أثر في الأفكار والمفاهيم الإسلامية كالتاريخ والعلوم واللغة وآدابها، ولا يزال التأثير مستمراً حتى يومنا هذا، وقد ذهب المستشرقون[14] - منهم ت. نولدكي (1836-1930م)، وجوستاف فلوجل (1802-1870م)، وألفونس منغنا (1878-1937م)، وريجي بلاشير (1900-1973م) - في ادعاءاتهم إلى حد القول بتأثير خارجي في نص القرآن نفسه، وهذا معناه أنّ كل العلوم متأثرة بعوامل خارجية.

وقد نفى الله - عزّ وجلّ - أن يكون هناك أي تأثير بشري في كتابه العزيز قبل 1400 عام، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[15].

أما بالنسبة إلى التأثير الخارجي فإن مفهوم القياس – على سبيل المثال – كان قد طبق في القرن الأول الهجري عندما استخدم أغلب قراء القرآن الحجة لاستنباط أحكام قانونية جديدة، ومن ذلك أن عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي كان يصحح للفرزدق متبعا في ذلك القياس في النحو، ومن ذلك تخطئته لقوله:

مُسْتَقْبِلِين شَمالَ الشَّأْم تَضْرِبُنَا بحَاصِبٍ مِن نَديفِ القُطْن مَنْثُورِ
على عَمَائمنا يُلْقى وأَرْحُلُنا على زَوَاحِفَ تُزْجَى مُخُّهَا رِيرِ[16]

لأنّ (مُخُّهَا رِيرُ) جملة مؤلفة من مبتدأ وخبر، وقد أخطأ الفرزدق بكسر (ريرِ)؛ إذ لا عامل يؤدي إلى ذلك كالإضافة أو حروف الجر.

لم يكن رينان اللغوي الوحيد الذي أيد أصالة النحو العربي ومبادئه، بل شهد بذلك المنظّر اللغوي الشهير نعوم تشومسكي الذي يرى أن لكل لغة تاريخها الفريد، وتطورها الخاص بها. ويرى تشومسكي أن الادعاء القائل بأن أية لغة مستندة إلى لغة أخرى بشكل مباشر ادعاءٌ يجب إعادة النظر فيه؛ لأن جميع العقول البشرية – بطبيعتها – لا تستهجن الشيء العالمي بل تألفه، ومع هذا فإن الشعوب تطور تفاصيلها[17].

إن وجود اللغة أو بنيتها في العقل البشري لا يمكن تحديده أو تبديله بشيء آخر بسهولة، فضلاً عن أن الخبرات الفردية للمجتمع اللغوي تنعكس في بناء اللغة وأسلوبها. أضف إلى ذلك أن خلق اللغة أو بناءها ليسا ممارسة ثابتة، لذا لا يمكن إبدال نظام لغوي بآخر[18].

هناك مؤشر آخر على أصالة قواعد اللغة العربية – أشارت إليه الباحثة في بحث سابق لها –[19] مستند إلى الترجمات الكثيرة إلى اللغة العربية التي بدأت في عصر الخلافة العباسية. إن ذلك النقل والاحتكاك اللغوي اللاحق للمعارف حدث بعد ظهور اللغة العربية بزمن طويل، فقد كان علم النحو والقواعد العربية قد أسسا قبل هذا النقل، أما زعم غولدتسيهر بأن اليونانية قد أثرت بشكل فعال في اللغة العربية فلا يمكن الأخذ به؛ لأن البلاد العربية وقتها كانت معزولة بشكل تام عن مراكز الحضارة الرئيسة.

بالنظر إلى بنية اللغة العربية يمكن القول إنها كانت خالية من أي مؤثر خارجي أو أجنبي، كما أكد ذلك ابن عباس، فقد روي عنه قوله:

"أول من تكلم بالعربية المحضة إسماعيل وأَرادَ به عربيةَ قريش التي نزل بها القرآن، وأما عربية قَحْطان وحمْير فكانت قبلَ إسماعيل، عليه السلام"[20].

وندرك أن العربية بوصفها لغة ناضجة ومكتملة التطور كانت موجودة قبل ظهور النبي إسماعيل - عليه السلام - وكانت مستخدمة من قبائل قحطان وحمير، فكان جميع مَنْ في سفينة نوح يتكلمون لغة واحدة إلَّا رجلاً واحداً يقال له جُرهم، كان لسانه لسانَ العربيّ الأول، فلما خرجُوا من السفينة تزوّج إرَم بن سام بعض بناته فمنهم صار اللسانُ العربي في ولده عَوْص أبي عاد وعَبيل وجاثر أبي ثمود وجديس وسُمّيَت عادٌ باسم جرهم، لأنه كان جدَّهم من الأم[21]، ومن نسله أصبحت العربية لغة أمة عظيمة[22]، وبعد ذلك انتشرت العربية على يد نسل إسماعيل، عليه السلام[23].

إن العربية لغة أصيلة لها نظامها النحوي الفريد المتجذّر في القدم، بل إنّ العربية الأولى (وإن كانت مختلفة في بضعة أشياء عن العربية التي كانت في العصر الجاهلي) يرجع ظهورها إلى ما قبل ظهور اليونان بآلاف السنين، فلو أخذنا بالرأي القائل بأنّ إسماعيل - عليه السلام - أوّل من نطق بالعربية فهذا يعني أنّ ظهور العربية يسبق اليونانية بما ينيف على ألف سنة في أقل تقدير؛ ولكي نظهر بأمانة علمية انتقال اللغة العربية من مرحلة إلى أخرى يجب علينا أن نركز على المصادر القديمة، ومن ذلك ما أشار إليه سيبويه:

"هذا باب مجاري أواخر الكلم من العربية وهي تجري على ثمانية مجارٍ: على النصب والجرّ والرفع والجزم، والفتح والضمّ والكسر والوقف. وهذه المجاري الثمانية يجمعهنّ في اللفظ أربعة أضرب: فالنصب والفتح في اللفظ ضرب واحد، والجرّ والكسر فيه ضرب واحد، وكذلك الرفع والضمّ، والجزم والوقف. وإنما ذكرت لك ثمانية مجار لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل - وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه - وبين ما يبنى عليه الحرف بناءً لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل، التي

لكلّ منها ضرب من اللفظ في الحرف، وذلك الحرف حرف الإعراب"[24]. للعربية الفصحى ثماني حالات هي النصب والجر والرفع والجزم والفتح والكسر والضم والسكون (الوقف)، وقد قسم سيبويه تلك الحالات الثماني على أربعة أزواج: النصب والفتح، والجر والكسر، والرفع والضم، والجزم والسكون، والكلمة تستقبل زوجاً مختلفاً؛ لأنها ناتجة من عامل معين، فنهايتها ليست دائمة أو ثابتة وحركتها تتغير بناء على موقعها من الجملة واستخدامها فيها.

إن هذه العملية تسمى بالحكم أو ما يسمى في العربية بنظرية العامل، ويؤمن شوقي ضيف بأن هذا النوع من القوانين من مميزات العربية[25] ودليل قاطع على أصالتها. إن التعريف بعلامات الحركات في اللغة المكتوبة يجب أن ينظر إليه بعدّه تطوراً منفصلاً ولا يتداخل مع النحو الأصلي. لقد ادعى غولدتسيهر أن هذه العلامات الإضافية مأخوذة من الحركات (سقوفو)[26] و(ربوصو)[27] في اللغة السريانية[28]؛ مما ضلل قراءه عندما قال: "لم يطور العرب المبادئ الأساسية للقواعد من وحي إبداعهم بل أخذوا ذلك من السريانيين". إن حروف العلة السريانية مرت بمراحل عدة، وسلكت طرقاً متنوعة في تطورها[29]، ولكن المصطلحات (سقوفو وربوصو) مستخدمة في اللغة السريانية فقط، أما النحو العربي فلم يكن معتمداً على هذه العلامات الإضافية في المخطوطات، بل على الحركات على أواخر الكلم، وهذه طريقة متميزة انفرد بها الفكر العربي، وبتغيرها يتغير معنى الجملة، فهي شديدة الأهمية في العربية لمعرفة المعنى المراد، ومثال ذلك الآية القرآنية:

﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥٓ﴾[30].

فلو حرك اللام في (ورسوله) بالكسرة لتغير المعنى كلياً؛ ففي تلك الحالة سيكون الرسول مع مجموعة المشركين الذين تبرأ الله منهم، بينما تشير الآية إلى أن النبي يتبرأ مع الله منهم، وفي هذه الحالة تكون القراءة باطلة مردودة، أما تغيير الحركات الذي لا يؤدي إلى مثل ذلك ولا يتعارض مع التعاليم الإسلامية فأمر جائز ومثاله، ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾[31] فالكلمتان الأولى والثانية مرفوعتان وفوقهما ضمة، ويمكن قراءتهما بالنصب بفتح أواخرهما

(وَالسَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ)، ومن ذلك أيضاً: «قَتْلَ أَوْلادِهِمُ شُرَكائهم»[32] و«إِنْ هذان لساحِران»[33]، والمُقيمينَ الصّلاةَ والمُؤتون الزّكاةَ»[34] و«إِنَّ الّذينَ آمنُوا والّذينَ هادُوا والنَّصارى والصابئون»[35]. إن الحركات مهما تنوعت وغيرت معنى الآية أو جزءاً منها، فإن القاعدة هي أن تظل الآية ذات معنى إيجابي، وهذا منحصر بالطبع في القراءات، ويشرح السيوطي ذلك بقوله:

"وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياساً معروفاً بل ولو خالفته يحتج بها"[36].

وبالعكس قد افترض غولدتسيهر خطأ أنه لا يمكن تشكيل المفاهيم النحوية قبل استخدام علامات الحركات؛ لأنه لا تكاد توجد وظيفة نحوية في اللغة العربية ليست مرتبطة بالحركات على أواخر الكلمات، وهو يؤكد ذلك بقوله: "بدأ هؤلاء الناس باختراع علامات للحركات في زمن محدد"[37]، وفي حقيقة الأمر إنه يؤكد أن العرب كانوا على علم بأهمية هذه الحركات على أواخر الكلمات، والمعنى الذي توصله، لذلك ابتكروا علامات مكتوبة لمنع القراءات المحتملة الأخرى التي قد تغير المعنى المقصود أو تقلبه تماماً، ومع هذا يستنتج استنتاجاً مرتبطاً بتأثر خارجي: "إن الأمة التي اقتدوا بها مثالاً في النظام الكتابي كانت أكثر عامل مهم في نهضة الوعي النحوي"[38]، وفي هذه النقطة نلاحظ التناقض الذي يوقع نفسه فيه؛ إذ لم تكن القواعد اللغوية والنحو السريانيان ما أثر في اللغة العربية، لكن السريانيين طوروا نظاماً لحركات إضافية، وقد وجده اللغويون والنحويون العرب مفيداً للاستخدام، فقد سأل أبو الأسود الدؤلي تلاميذه أن يستخدموا رموزاً إضافية يحدّدها فتح فمه وإغلاقه[39]، فعلامة السكون تدعى (نقط الإعجام)، والعلامات الإضافية الأخرى المستخدمة في القرآن (الفتحة والكسرة والضمة والسكون) تدعى (نقط الإعراب)، وقد ابتكرها قراء القرآن الكريم في القرن الثاني الهجري[40].

وفي القرن نفسه ابتكر أبو إسحق الحضرمي القياس، فمن ذلك محاولته شرح بعض الأبيات الشاذة للفرزدق كقوله:

وَعَضُّ زَمانٍ يا بنَ مَرْوَانَ لم يَدَعْ مِنَ المَالِ إلّا مُسحَتاً أوْ مُجَرَّفُ[41]

فكلمة (مُجَرَّفُ) بالضم غير صحيحة؛ لأن حقها النصب لكونها معطوفة على الكلمة التي قبلها.

وخلاصة القول إن مزاعم غولدتسيهر حول الانتقال (الصامت) لقواعد لغة أجنبية واندماجها في قواعد اللغة العربية افتراض مغلوط، وعلماء النحو المسلمون لم يذكروا أي وجود لأصول أجنبية في اللغة العربية، وهم لم يصرحوا بذلك التأثير لأنه لم يكن له وجود قطّ.

ثانياً - القياس والشذوذ

زعم غولدتسيهر أن البصرة والكوفة كانتا مدينتين على خصام دائم في كل شيء، فقد كتب قائلاً: "مثلما اختلفوا في شخصياتهم وميولهم السياسية، اختلفت المدينتان في طريقة تعاملهما مع العلوم، فالمنافسة بين المدرستين البصرية والكوفية كانت مدار حديث في جميع المجالات، فقد تعارضتا في المسائل التاريخية؛ فقد ذكرت المصادر أن الاختلافات بينهما وصلت حتى في اللهجة، ولكن نقطة الخلاف الأكثر إثارة للجدل متعلقة بالنحو ولا سيما في مسائل القواعد"[42].

ولغرض دحض وجهة نظر غولدتسيهر قدمت الباحثة أدلة من البنية النحوية فقط؛ حيث ركزت على مسائل القواعد. مبدئياً تشير الأدلة إلى اختلاف في المفاهيم اللغوية والقاعدية بين مدرستي البصرة والكوفة؛ فمدرسة البصرة - بصورة عامة - كانت تميل إلى الفلسفة بشكل أكبر عند صياغتها لنظام القواعد، في حين بنت مدرسة الكوفة قواعدها على قراءات في آيات الذكر الحكيم مع حفظ النصوص القديمة، وعلى الرغم من تطبيق مدرسة البصرة للقياس بشكل أكثر، فإن هذا لا يعني أنّ علماء مدرسة البصرة لم يرجعوا إلى النصوص القديمة فيما يتعلق بالبنية اللغوية، لقد قام أبو الأسود الدؤلي، ونصر بن عاصم، وأبو إسحق الحضرمي، وعيسى بن عمر الثقفي، وأبو عمرو بن العلاء، ويونس بن حبيب[43] بتزويدنا بكم هائل من التراث اللغوي، ومع ذلك فإن اللغويين البصريين قدموا مفاهيم نظرية أكثر في نظرية النحو العربي، وهذا ما أشار إليه ابن سلّام بقوله:

"وكان لأهل البصرة قُدمةٌ، وبالنحو ولغات العرب والغريب عنايةٌ"[44].

وهذا قول يدعمه قول ابن النديم: "إنما قدمنا البصريين أولا، لأن علم العربية عنهم أُخذ"[45].

إن كلا القولين السابقين يظهر أن علماء البصرة كانوا هم من طوروا النظرية النحوية؛ فقد رحلوا إلى الصحراء في نجد والحجاز وتهامة ليجمعوا كلام العرب الذي كان نقياً بعيداً عن تأثير العوامل الأجنبية[46]، فطبقاً لشوقي ضيف[47] قاد القراء البدايات الأولى للمدرسة البصرية؛ فمنذ عهد أبي الأسود الدؤلي، كانت القراءات هي المحرك الرئيس لوضع النحو وأول مرجع للنحو العربي هو الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - الذي أشار على أبي الأسود بقوله: "انح نحو هذا". وقد نظر الخليل - أحد أشهر لغويي البصرة - في السماع ليبني مفهوم القياس، وذلك بجمع مادة لغوية صافية عبر ترحاله في بادية نجد والحجاز وتهامة[48]، وقد انفصلت الكوفة عن مدرسة البصرة بعد مناظرة بين سيبويه والكسائي، وهي المسألة الشهيرة بالمسألة الزنبورية[49]. إن الاختلافات في وجهات النظر في النظام النحوي استمرت حتى ظهور الفراء، الذي بنى أكثر تحليله على القياس، على أنّ كثيراً من مؤرخي علم اللغة يؤكدون تأثره بعلماء البصرة، ولكن هذا الادعاء رفضه شوقي ضيف[50] الذي رأى أن الفراء عالم له كيانه الخاص وأفكاره الأصيلة، وفي الحقيقة لو نظرنا إلى المصادر التي أشار إليها سيبويه في كتابه[51] لخلصنا إلى أنه قد تحدث قضية تبادل أفكار في أجواء صحية بين علماء مدرستي الكوفة والبصرة، والدليل على ذلك ما ذكره سيبويه عن أقوال الكوفيين في "الكتاب" وهو موجود، لذلك فإن القول بانعدام وجود آراء للمدرسة الكوفية في المدرسة البصرية غير دقيق ويحتاج إلى مراجعة في ذلك.

إن القياس الخاص بالنحو قد يحتاج إلى التأكد منه باستخدام منهاج الشذوذ، ومثال ذلك ما سمح به سيبويه والجمهور من استخدام القياس في مسألة الحال[52]، فقد اتفق كلاهما على أن الكلمة (بغتة) في (زيد طلع بغتةً) مصدر يصف طريقة الخروج، وفي حالة أخرى قبلوا قراءة شاذة في «فَبِذلِكَ

فَلْتَفْرَحُوا»[53]؛ لأن المدرسة البصرية سمحت بذلك في النظام النحوي بالاعتماد على القياس في الآية ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾[54]، وقد قبل عدد من الدعاة إلى الاستشهاد بالشاذ من القراءات استخدام القياس في بعض الحالات، من ذلك الإشارة إلى التوكيد، في الكلمات أجمع، وأكتع، وأبصع، وأبتع، التي أصبحت مثنى (أجمعان وأكتعان وأبصعان وأبتعان)، كما ذكر الرضي في شرح الكافية:

"وقد أجاز الكوفيون والأخفش: لمثنى المذكر، أجمعان أبتعان أبصعان، ولمثنى المؤنث: جمعاوان كتعاوان بتعاوان بصعاوان وهو غير مسموع"[55].

وهناك حالة أخرى لقبولهم حالة النصب في الفعل المضارع، مثل: (ليكونَ)، وقد ذكر ذلك الرضي أيضاً: "والكوفيون يجوّزون النصب في مثله قياساً"[56]، وفي هذه المسألة أضاف غولدتسيهر تعليقاً: "أودّ أن أسلط الضوء على مصدر يعدّ في حدّ ذاته مثالاً على غزارة النزعة النظرية للمدرستين، وهذا المصدر هو كتاب ابن الأنباريّ (الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين)"[57]، وقد شرح ذلك بعدها بقوله: "إن المدرستين المذكورتين آنفاً معروفتان باعتماد كلّ منهما معايير ثابتة في التمييز بين القياس والشذوذ في حقل دراسة القواعد"[58]. ضمّ كتاب ابن الأنباري 121 مسألة بحاجة إلى مراجعة وتحليل لمضمونها بدقّة، وطبقاً لغوتهولد ويل[59] يجب صرف النظر عن نظرية الندّية بين مدرستي البصرة والكوفة لقلة الأدلّة التي تدلّ على وجود مدرسة الكوفة بما تحمله كلمة المدرسة من اكتمال ونضوج في النظرية، فقد رأى أنّ ابن الأنباري لم ينشر الفكر الكوفيّ؛ لأنّ ابن الأنباري لم يوافقهم في الرأي إلا في أربع مسائل من 121 مسألة[60]، ومن ثم فإنّه من المرجّح أنّ الكوفة هي التي كانت تنظر إلى البصرة بحثاً عن الأجوبة والتوجيهات، فلم تكن المدرستان على قدر واحد في المستوى، لذا فإنّه من غير الممكن أن تكون الكوفة نداً للبصرة. وقد سلّط سعيد جاسم الزبيدي[61] الضوء على أهمية استخدام القياس والسماع في النحو العربي عند مدرستي البصرة والكوفة، وذلك باقتباس أسئلة من السيوطي:[62] هل صحيحٌ ما قيل عن

البصريين إنهم أصحّ قياساً من الكوفيين؟ وما حقيقة موقفهما؟ وهل سلم لهما كلا المنهجين؟

وشدّد الشيخ الطنطاوي[63] على الجانب الإيجابي في استخدام كلتا المدرستين طرائق مختلفة في منهجيهما، في حين كان غولدتسيهر مصراً على عناده بادعائه أنّ "مدرسة البصرة كانت تمثّل القياس وتعامل كلّ مثال بالمعايير نفسها، بينما كانت مدرسة الكوفة تمثّل جانب الحالات الفردية في النحو، وكانت تسمح بتنظيم القواعد وترتيبها، على خلاف الأشكال النحوية المعتمدة، بل كان المثال الشعري المفرد يعدّ دليلاً عندهم لفتح الباب أمام قاعدة جديدة"[64]، وتابع قائلاً: "وما كان يسمى خطأ (استثناءات)، سماه النحويون العرب (الشاذ وجمعها الشواذ)، وبعبارة أصحّ إنّها حالات لا تتبع القياس النحوي، وهي حالات تظهر في الشعر القديم"[65]، "وهذا يعني أنّ الحالات الاستثنائية ينبغي أن تبقى على ما هي عليه؛ أي أنها ينبغي أن تبقى استثناء لا يمكن عدّها قاعدة يقاس عليها"[66]، وفي الختام يستنتج الآتي: إنّ مدرسة البصرة كانت تمثّل القياس، أمّا مدرسة الكوفة فكانت تمثّل الأخذ بالحالات، على أنّها تأخذ بالقياس أيضاً.

إلى أي مدى ذهبت مدرسة البصرة في قبول القياس؟هذا ما ينبغي لنا التحقيق فيه للردّ على المزاعم التي جاء بها غولدتسيهر، لقد فصّل الأخفش الأوسط القول في هذا الجانب، حيث أشار إلى أنّ سيبويه قَبِل معظم القراءات الشاذّة[67] في قياسه، وهذا ما ذكره سيبويه بقوله: "القراءات لا تُخالف لأنها سنّة"[68]، ولنأخذ بعض الحالات على القياس والشذوذ والقراءات الشاذة؛ وجد الشذوذ القاعدي في كلام العرب، كقولهم: هو منّي مقعد القابلة؛ أي كائن مقعد القابلة، ففي حالة إذا كان العامل من غير جذر المفعول فيه نفسه وجب في القياس إضافة حرف الجر (في)؛ أي بمعنى كائن في مقعد القابلة[69]، وهذا يجعل هذه الحالة حالة شاذة، وعلى سبيل المثال حالة أخرى من الشذوذ أشار إليها ابن مالك[70]:

لك العزُّ إنْ مَولَاكَ عَزَّ وإنْ يهُنْ فأنتَ لدى بُحْبُوحَةِ الهُوْنِ كائنُ

فالحالة التي نحن بصددها هي وجود كلمة (كائن)، وهي حالة لا يمكن

عدّها ضمن معايير الصياغة التي ينبغي أن يكون عليها نظام القياس، وقد اقتبس غولدتسيهر في هذه النقطة رأي السيوطي[71] قائلاً: "إنّ إحدى أكثر نقاط الخلاف المعروفة بين المدرستين مرتبطة بالشواذ، فعندما تناول عالم بصريّ تقليدي مسألة الشاذ تمسّك بقواعده وأكّد على أنّ صيغة استثنائية كهذه ينبغي أن تظلّ على حالها فلا تعدّ معياراً يقاس عليه"[72]. قبل النحويون العرب السماع الذي قعّد له علماء الكوفة لدعم القياس، ومن الأمثلة على ذلك (ما أُميلحه) – وهي صيغة يراد بها التصغير وقد جاءت هنا للتحقير – التي لا يمكن قبولها في فعل، بل في مصدر، وهذا ما شرحه الخليل بقوله: "لم يكن ينبغي أن يكون في القياس؛ لأنّ الفعل لا يحقّر وإنّما تحقَّر الأسماء؛ لأنها توصف بما يعظم ويهون، والأفعال لاتوصف، فكرهوا أن تكون الأفعال كالأسماء لمخالفتها إيّاها في أشياء كثيرة، ولكنهم حقّروا هذا اللفظ وإنّما يعنون الذي تصفه بالملح، كأنّك قلت: مليِّحٌ، شبّهوه بالشيء الذي تلفظ به وأنت تعني شيئاً آخر"[73]، وقد ضرب المبرد مثالاً على حالة شاذة وهي مجيء الحال مصدراً: جاء زيدٌ بغتةً؛ فقد جاءت كلمة (بغتة) حالاً، وهذا شذوذ عن القاعدة:

"ومن المصادر ما يقع في موضع الحال فيسدّ مسدّه، فيكون حالاً؛ لأنه قد ناب عن اسم الفاعل، وأغنى عنه، وذلك قولهم: قتلته صبراً. إنما تأويله: صابراً أو مصبراً. . . فهذا اختصار يدل على ما يرد مما يشاكلها، ويجري مع كل صنف منها"[74]، وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ مدرسة البصرة قبلت الصيغة الشاذّة بناء على مثال سابق، ومن ذلك قراءة «فَبِذلِكَ فَلْتَفْرَحُوا»[75]؛ حيث إنّ وجود لام الأمر قبل الضمير قد قِيس على قوله تعالى: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾[76]، وقد قبل المبرد[77] الصيغة الصرفية (فاعل) و(فعّال) على أنّه نسب كما مثّل لذلك سيبويه بقوله: "وذلك قولك لصاحب الثياب: ثوَّاب، ولصاحب العاج: عواج؛ ولصاحب الجمال التي ينقل عليها: جمَّال. . . وذا أكثر من أن يحصى"[78]، وهناك مثال آخر قبل فيه أغلب العلماء حالة شاذة من يونس بن حبيب، وهذا ذكره سيبويه" وقال قوم: يا أخانا زيدُ، وقد زعم يونس أن أبا عمرو كان يقوله: وهو قول أهل المدينة، قال: هذا بمنزلة قولنا يا زيد، كما كان قولُه يا زيدُ أخانا

بمنزلة يا أخانا، فيُحملُ وصفُ المضاف إذا كان مفرَداً بمنزلته إذا كان منادى. ويا أخانا زيداً أكثرُ في كلام العرب؛ لأنهم يردّونه إلى الأصل حيث أزالوه عن الموضع الذي يكون فيه منادى، كما ردوا ما زيدٌ إلا منطلقٌ إلى أصله، وكما ردوا أتقولُ حين جعلوه خبراً إلى أصله، فأما المفرد إذا كان منادى فكلُّ العرب ترفعه بغير تنوين"[79]؛ حيث كلتا القراءتين في (زيد) جائزة؛ أي بالرفع أو النصب.

باختصار لم يكن امتياز الأصالة في الدرس النحوي حصراً على مدرسة البصرة دون مدرسة الكوفة؛ فقد عرف عن العلماء الكوفيين مثل الكسائي والفراء استخدام القياس المنسوب إلى المدرسة البصرية، وذكر السيوطي عند حديثه عن الكسائي قوله[80]:

إنّما النحو قياسٌ يتّبعْ وبه في كلّ علمٍ ينتفعْ

ويؤيّد مهدي المخزومي[81] السيوطي في هذه النقطة؛ حيث يعقب بقوله: "كان يقيس عليه، وإن لم يرد في كلام العرب غيره"، فهناك حالات للقياس وضعتها مدرسة الكوفة، ومن ذلك وضعهم فعل التعجّب في صيغة (أفعل)[82] قياسا على (نعم وبئس)، وكذا الحرف (لن) المشتقّ من (لا) و (أن)[83]، وقد علّق سعيد جاسم الزبيدي على موضوع القياس عند البصريين والكوفيين بقوله: "إن البصريين والكوفيين يقيسون، وليس صحيحاً ما قيل عن مذهب البصريين إنه قياسي، ومذهب الكوفيين إنّه سماعي صرف"[84]، ويدعم هذه الفكرة رأي المخزومي[85]، الذي أكّد أن الاختلافات الكوفية لم تميّز نفسها عبر تطبيق الشذوذ فقط، بل عبر الكفاءة الفكرية لنحاتها؛ فالفراء – على سبيل المثال – بنى مفاهيمه القاعدية على أسس فلسفية، ولم يتردد في تكوين آرائه الخاصة بناء على عوامل غير منظورة؛ ففي بعض الأحيان يترك الشذوذ، ويستخدم القياس حينما يرى أنّ ذلك ملائم للحالة[86]. وعلى الرغم من كلّ الأدلة النصيّة أصرّ غولدتسيهر على نظريته القائمة على فكرة الصراع بين المدرستين، وذلك بالإشارة إلى حقل منفصل تماماً عن التحقيق العلمي، فذكر الفقه الإسلامي، وزعم الآتي: "طبقاً لما ذكرته في دراسة أخرى عن مدرسة أبي حنيفة الفقيه

الكبير، يمكن إدراك السبب وراء انجذاب هذا الإمام لمدرسة الكوفة النحوية بسهولة كبيرة"[87]، إنّ دراسة غولدتسيهر لآراء أبي حنيفة القانونية تضمّنت مقارنة عامّة جداً مع المدرسة البصرية، مثل مقارنته لآرائه المختلفة حول (البيع) التي لم يناقشها إلا بشكل مبدئي، من دون دراسة شاملة للمفاهيم العامّة لفقه البيع، أو أيّة دراسات مفصّلة حول أمور أكثر تعقيداً[88]. إنّ حقيقة أن علماء الكوفة كانوا أكثر حماسة وإنتاجاً في رواية الشعر العربي القديم من زملائهم البصريين، لا تهمّنا كثيرا في هذا السياق، فما يهمّنا هنا إذا ما كان النظام كذلك، ونقصد هنا أن نرجع إلى المدرسة الكوفية في المستقبل في حال رجوعهم إلى القصائد التي رووها، لتزويدهم بأمثلة أكثر عن القياس، ومن هذه العملية تتوسّع معارفهم النحوية. إنّ مما لا شك فيه أنّ القياس ينبغي أن يسير جنباً إلى جنب مع الشذوذ، ومثال ذلك[89]:

تَزَوَّدْتُ مِنْ لَيْلَى بِتَكْلِيْم ساعَةٍ فَمَا زَادَ إِلَّا ضِعْفَ مَا بِيْ كَلَامُهَا

والحالة هنا (فما زاد إلا ضعف ما بي كلامها)، حيث قدم المفعول به، وهو قوله (ضعف) على الفاعل، وهو قوله (كلامها) مع كون المفعول منحصراً بإلا. إنّ أدلة التعارض أو الخلاف في وجهات النظر بين مدرستي البصرة والكوفة لا تعني – بأية حال من الأحوال – افتراض أنّ المدرستين كانتا مشتركتين بشكل نشط في معركة فكرية، فالنظريات والمناهج المختلفة لم تنشأ بالانعزال بين المدرستين، بل بنشاطهما جنباً إلى جنب، فالنظريات اللغوية المختلفة التي طورتها المدرستان كانت كل منهما بالفعل مكمّلة للأخرى، لا العكس.

تأثير التفكير الفلسفي في اللغة

أولاً – موقف غولدتسيهر من التفكير الفلسفي وأثره في اللغة العربية

من أجل إدراك ثابت لآراء غولدتسيهر حول علم اللغة العربي نحن بحاجة إلى مناقشة ارتباط تلك الآراء بالتفكير الفلسفي؛ فقد بدأ عرضه بقوله: "أظهرت فلسفة علم اللغة العربية اهتماماً عظيماً بالسؤال الفلسفي نفسه الذي شكل أساس علم اللغة اليوناني: هل اللغة وحي أم أنها خرجت إلى حيز الوجود

بالاصطلاح "[90]، وهنا نلاحظ أنّ غولدتسيهر يشكّك في أصالة الوحي القرآني، ويفترض تأثير الفكر اليوناني القديم على اعتبار أنّ الفلسفة اليونانية ازدهرت في القرن الرابع قبل الميلاد[91]، في حين نزل القرآن في القرن السابع الميلادي؛ أي بعد أكثر من ألف سنة[92]، ويرى - بحسب زعمه - أنّ مضمون القرآن كان انتقالاً ثقافياً من ثقافة أعلى مستوى (اليوناني) إلى ثقافة أدنى (العرب)، وغني عن الإشارة أنّ مزاعم غولدتسيهر مبنية على نتائج غير موثّقة بالأدلّة.

هناك احتمال في حقيقة الأمر لأن تكون الفلسفة اليونانية قد أثّرت في وقت لاحق عن التفكير الفلسفي، كما هي الحال مع المعتزلة الذين ركّزوا بصورة خاصة على المنطق، وعلى كلّ حال فإنّ الفلسفة اليونانية لم تصبح ذات صلة بالفلسفة الإسلامية إلا بعد انتقال أفكار الحضارة الهلينية عبر عملية ترجمة الكتب في العصر العباسي، وقد عمل السريان وسطاء بين اللغة الإغريقية واللغة العربية[93]، فكانت البداية مع أشهر مترجمين نصرانيين وهما إسحق بن حنين، ويحيى بن البطريق. إنّ مما هو مثبت في التاريخ أنّ دمشق كانت مركزاً هلينياً في القرون الثالث والرابع والخامس الميلادية[94]؛ حيث كانت الإغريقية اللغة الرسمية للمحاكم والمكاتب الإدارية، ومن هذا المنطلق زعم غولدتسيهر - بثقة - أنّ "كل هذا كان ذا أهمية حيوية لفلسفة علم اللغة العربي؛ لأنّ هذا السؤال يحمل أهمية فلسفية كذلك... وهذا مقارب بشدّة لما يحمله تفسير الآية القرآنية ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[95]، ففي الفكر الإسلامي لا يعني السؤال (هل اللغة وحي أم اصطلاح) شيئا سوى كونه تفسيراً لهذه الآية، في حين أنّ السؤال الأساسي بدأ من القرآن، وهذا السؤال لدى ابن جني يبين مدى تطبيق النظريات الفلسفية اللغوية الإغريقية في اللغة العربية، وذلك بالاعتماد على ما إذا كانت النقاشات تتابع القرآن حرفياً أو تبحث عن إيجاد معنى عقلي في آياته"[96]، وأضاف قائلاً: "تحول هذا السؤال في الفلسفة اللغوية الإغريقية إلى سؤال عقدي وفلسفي في الأدب الإسلامي، وتختلف آراء العلماء اللغويين المسلمين طبقاً للمدرسة العقدية التي يتبعها كلّ منهم"[97]، لقد حاول غولدتسيهر الربط بشكل مباشر بين المدرسة الفلسفية للمعتزلة وتأثيرهم الفلسفي في اللغة العربية

بقوله: "إنّ مدرسة المعتزلة أوردت نقاشات غيبيّة بشكل أكبر لدعم ما أقرّوه، ولكنّ هذه النقاشات اقترنت بشكل أكثر بالفلسفة الإسلامية التي لا يمكننا أن نختصرها هنا، ويمكن القول **بأنّهم** قد استنتجوا من كل هذه النقاشات أنّ اللغة منتجة من الاصطلاح أو التواضع؛ أي أنّها اتفاق وليست وحيا أو إلهاما، أو بعبارة أدق: ليست وحياً إلهياً"[98].

ثانياً - موقف القدامى العرب من التفكير الفلسفي[99] وأثره في اللغة

ومن أجل تقييم أصالة اللغة العربية ينبغي لنا النظر إلى تيارين فكريين مختلفين في الفكر الإسلامي، وهما تيار العلماء المتشددين في تفسير النص العقدي وتيار العقلانيين، وفي حقيقة الأمر قدّم كل فريق منهما أدلّته الخاصة لإثبات أصالة اللغة؛ فعلماء اللغة المسلمون الذي اتبعوا التيار المتشدّد رأوا أنّ المصدر المعتمد الوحيد هو النص القرآني، وفي الجانب الآخر ادّعت المدرسة العقلانية أنّ اللغة العربية هي نتاج إجماع ثقافي (اصطلاح)، وهذا يعني أنّ الشعر العربي القديم عندهم هو المصدر المعتمد[100]. من بين المؤيدين للمجموعة الأولى التي ترى في القرآن مصدراً معتمداً هم النحاة[101] مثل القزويني والفارسي والأخفش وأبو الحسن الأشعري[102] الذي دافع عن هذا الرأي وعدّ أنّ جميع اللغات مشتقة من لغة آدم - عليه السلام - وهي نتيجة لوحي سماوي[103]. كانت بداية هذه المدرسة مع ابن عباس - رضي الله عنه - الذي قال: "علّم الله آدم أسماء كلّ الأشياء، وهذه الأسماء تضمّنت كلمات مثل الأرض والجبل والجمل والحمار والنهر... إلخ"[104]، وهذا ما دعمه مجاهد أيضاً الذي نقل عنه أنّه قال: "علّم الله آدم الأسماء كلّها"[105]. ودعم قسم آخر من المتشددين فرضية مفادها أنّ الله علّم آدم أسماء الكائنات كلها، ولكن باللغات جميعها، كالعربية والفارسية والسريانية والعبرية واللاتينية وغير ذلك، وقد تكلم آدم وأبناؤه بهذه اللغات جميعها حتى انتشروا في مناطق مختلفة في الأرض، ثم بدأت الجماعات اللغوية بالتطور منذ ذلك الحين[106]. ومن ذلك ما أشارت إليه الأدلة التي وجدت في الكتب السماوية، ففي التوراة - مثلاً -: (قال الربّ:

ليس من الجيد أن نخلق البشر ولا نخلق لهم طريقة يتواصلون بها ويساعد بها بعضهم بعضاً)، لذلك خلق الله الأرض والحيوانات والطيور وعرضهم على آدم وعلّمه أسماء ذلك كله، ثمّ أعاد آدم ذكر هذه الأسماء[107]، وقد ذكر هذا الأمر في القرآن أيضا، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[108] وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[109]، في حين استند الفريق الثاني من علماء اللغة في آرائهم إلى المنطق لا إلى النصوص السماوية؛ فقد ناقشوا فكرة أنّ الكلام الإنساني تطوّر بفعل الإبداع العقلي[110]. إنّ اللغة كانت وحياً لذلك بدأت فكرةً ومن ثمّ اكتسبت بالاصطلاح (الاتفاق)، تماماً مثل محاولة الأطفال الرضع تقليد آبائهم الناطقين باللغة، فقد نطق آدم أوّل إنسان مشى على الأرض بالأصوات التي علّمه الله إياها[111]، ثمّ علّم أبناءه تلك الأصوات؛ والحداثيون من الفريق الثاني يؤمنون بأنّ أصل اللغة بحاجة إلى إثباته عبر الوحي الإلهي والمنطق. إنّ فهم اللغة بوصفها وحياً معتمدٌ على رؤية ابن جنّي التي تقول بأنّ تطور اللغة جاء من خلق المصطلحات اللغوية التي تشكّل مبدأ جماعة العقلانيين، فالمعرفة البدائية موجودة في العقل البشري؛ لذلك فإنّها تسمح بخلق كلمات مستقلة، فرؤية ابن جني في موضوع أصل اللغة مختلفة عن رؤية الفريق المتشدّد، فقد كان على استعداد لأخذ أفكار بديلة ودمجها في نظريته، فضلاً عن أنّه قسّم عمليّة الاصطلاح في تطوّر اللغة على مرحلتين؛ الأولى بأن يجتمع جمع من اللغويين ويتفقوا على اصطلاحات معينة، والثانية نزعة الإنسان إلى تقليد أصوات موجودة في الطبيعة مثل صوت هبوب الرياح (هزيز)، وصوت الرعد المدوّي (هزيم)، وصوت تدفق الماء في النهر (خرير)، والصوت الصادر عن وقع حوافر الخيل... إلخ[112]. وتأييداً لآراء ابن جني، ذكر الفيلسوف الأندلسي ابن رشد في نقده لكتاب[113] (De interpretatione) لأرسطو أنّ اللغة تطورت عن طريق عملية الاصطلاح وأنّ الاختلافات الموجودة بين اللغات حدثت فيما يتعلق بتعابير محددة عائدة لأشياء غير محسوسة، كما هي الحال في المفاهيم غير المعروفة في بعض الأحيان، ولتفسير مفهوم الاصطلاح أصبح لزاماً على أي

باحث أن يدرس تاريخ اللغة ويتعقب إدخال المصطلحات الجديدة بالتسلسل الزمني وظروف إدخالها. يتفق فيرستيغ[114] مع غولدتسيهر بفهمه للجدل الحاصل حول إذا ما كان أصل الكلام بالوحي؛ أو بالوضع اتفاقاً مع المعتزلة الذين ظهروا في النصف الأول من القرن التاسع بعد الميلاد في عهد الخليفة العباسي المأمون الذي وحظوا بدعمه وتأييده؛ فقد اعتمد المعتزلة مصطلح الوضع في القرن العاشر للدلالة على التطور اللغوي الحاصل عبر عملية الاصطلاح (الوضع). وفي الفترة التي كان فيها أغلب النحاة من المعتزلة كابن جني والفارسي والزجاج وقطرب وغيرهم، ادعى عباد بن سليمان (ت 864م) وهو أحد المعتزلة، أنّ هناك علاقة طبيعية بين الكلمات والأشياء[115]، وقد اتفق مع قوله هذا رأي ابن جني الذي يقول:

"وذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللغات كلّه إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح ومذهب مُتَقبّل"[116].

حاول ابن فارس إقناع قرائه بعدم قبول أفكار المعتزلة العقلانية حول مبادرة الإنسان الشخصية في هذا الشأن حين قال: "أقول إن لغة العرب هي وحي، والدليل على ذلك هو كلام الله ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾"[117]، ويقول مضيفاً حجة أخرى: "والدليل على صحة ما نذهب إليه إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم، ولو كانت اللغة مواضعة واصطلاحاً لم يكن أولئك في الاحتجاج بهم بأولى منا في الاحتجاج لو اصطلحنا على لغـــة اليوم ولا فرق"[118]، وأيّد أبو العافية وجهة نظر ابن فارس في كون اللغة وحياً، لكنه أشار إلى أنّ هذه اللغة هي لغة أسلافه اليهود وليست اللغة العربية، مستنتجاً أن كل اللغات نشأت عن طريق الاصطلاح، لكنّ الاستثناء الوحيد عنده هو اللغة العبرية[119]، وكان لغولدتسيهر وجهة نظر حين أشار إلى أنّ مفهوم الوحي والاصطلاح لم تجرِ مناقشته من العلماء المسلمين على الرغم من المحافظة على هذا الموضوع في

النصوص القديمة، ويجب أن لا ننسى أنّ عصر انتقال اللغة حدث بعد ذلك بكثير، والأعمال اللغوية لأبي الأسود الدؤلي وعبد الرحمن بن هرمز، ونصر بن عاصم، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن، وأبي إسحاق الحضرمي وأبي عمرو بن العلاء لم تُشر إلى هذا الموضوع. وعليه يستنتج فيرستيغ[120] أنّ غياب آلية التفكير في الاهتمام بتطور اللغة عند اللغويين العرب كان سبباً جزئياً لنقص الاهتمام بهذا الموضوع، فقد تعامل النحاة المسلمون مع نمط لغوي واحد وحاولوا المحافظة على اللغة كما يعرفونها بعدّها لغة لن تتغير، لذلك لم يَعْنِهم أي سؤال افتراضي بالنسبة إلى أصولها[121]؛ إذ إنّ موضوع أصل اللغة بالنسبة إلى النحاة لم يكن موضوعاً له الكثير من الجاذبية، ما عدا ابن جني الذي كان – طبقاً لفيرستيغ – تحركه آراء المعتزلة التي كان العلماء الآخرون يحذرون قراءهم من الاعتماد عليها كابن فارس[122].

يمكننا أن نستنتج في هذه النقطة أنّ اللغويين الذين آمنوا بأنّ اللغة نشأت عن طريق الإلهام (الوحي) تستند حججهم إلى فهمهم للكتب المقدسة، في حين ذهب أولئك القائلون بأنّها اصطلاح استناداً إلى المنطق معتمدين في ذلك على مفهوم القياس، كما تجدر الإشارة إلى أنّ غولدتسيهر يلخص عمله قائلاً- في كلام لا يخلو من المفارقة بالتأكيد – عبر تقديمه نظرية بديلة لقرائه: "أودّ أن أذكر وجهة نظر تتوسط النظريتين، وهي أن اللغة العربية جاءت إلى الوجود عن طريق الإلهام، في حين أنّ جميع اللغات الأخرى هي نتاج الاصطلاح"[123].

الخاتمة

إنّ نقد جنتس غولدتسيهر لعلم اللغة العربية كان مستنداً بصورة رئيسة إلى تركيزه الضيق على البعد التاريخي، ولكن على الرغم من ذلك لا يستطيع المرء إلا أن يشهد له على إمكانيته في الإقناع بالطريقة التي أعرب فيها عن أفكاره، فبدلاً من عرض نظرياته المثيرة للجدل وافتراضاته بصورة مواجهة ومباشرة، ذهب بصورة ذكية ودبلوماسية جداً ليلبسها بعبارات خفية عن الأخطاء الفكرية في أصول اللغة العربية مثل: "ليس السؤال المطروح هل القواعد العربية تعدّ

نظاماً نحوياً معيناً تم الاستيلاء عليه، بل السؤال هل وصل العرب إلى المفاهيم اللغوية الأساسية بناءً على أسس التفكير التي اتبعتها الأمم في تأمل طبيعة لغاتها، من تحليل لأجزاء الجمل والكلمات، واستنباط الاستخدام الصحيح من البيانات في شكل قواعد في غياب أي تأثير خارجي، أو باختصار هل هناك أية عوامل في نهضة الوعي النحوي عند العرب لم توجد في حياة العرب وأذهانهم" و"عبقرية قواعد اللغة العربية الخارقة التي تستخدم نظريات مبنية على المنطق الأرسطي"[124] حيث قدم بعناية افتراضاته من دون الإشارة إلى ادعاءاته الحقيقية، ولا سيما موضوع تأثر اللغويين العرب بالفكر اليوناني، وعلى الرغم من ذكره المتواصل لحالة القياس والشذوذ، فإنّه لم يخض في أيّة تفاصيل ولم يقدّم أدلة نصية ليسمح لقرائه بالحكم بأنفسهم. وفي موضوع تأثير الفلسفة اللاهوتية في النحو العربي قدم غولدتسيهر آراء مختارة ركز نقاشه فيها على أصول اللغة مركّزاً على الاصطلاح بدلاً من الوحي، ومع ذلك يذهب غولدتسيهر ويأخذ قارئ العصر الحديث ويفاجئه باستنتاجه أن أصل اللغة العربية جاء عن طريق الإلهام الإلهي وليس الاصطلاح، وقد يكون السبب وراء ذلك أصوله الثقافية والدينية، فلم يستطع أن يخون تعاطفه مع الفلاسفة اليهود مثل أبي العافية الذي كان يشير دائماً إلى ارتباط اللغة العبرية جوهرياً بالتوراة، الذي هو كتاب منزل وليس اصطلاحاً، ولما كانت العربية والعبرية من أصل لغوي واحد كان من غير المنطقي أن تكون إحداهما وحياً والأخرى اصطلاحاً.

الهوامش والمراجع

(1) - Goldziher

(2) - Goldziher, Ignaz: **History of Grammar among the Arabs**, Vol 73, The Netherlands: John Benjamin Publishing Company, 1994, p. 8.

(3) - Yaacob, Solehah: ‘‘Refuting the Alleged Transmission of Greek Thinking Concepts Into Arabic Grammar’’, **Journal Islam In Asia**, International Islamic University Malaysia: No.1, 2011, pp. 181- 200.

(4) - History of Grammar among the Arabs, p. 45.

(5) - History of Grammar among the Arabs, pp. xiii- xiv.

(6) - History of Grammar among the Arabs, p. 3.

(7) - History of Grammar among the Arabs, p. 4.

(8) - History of Grammar among the Arabs, p. 7.

(9) - History of Grammar among the Arabs, p. 5.

(10) - History of Grammar among the Arabs, p. 5.

(11) يعقوب، صالحة: "صفاء النحو العربي من التأثيرات الأجنبية"، **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، مجمع اللغة العربية الأردني: الحادي والثمانون، 2011، ص 37.

(12) أبو الطيب اللغوي: **مراتب النحويين**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: مكتبة النهضة، 1955، ص 35.

(13) سورة الكافرون: 1– 6.

(14) - Al-Azami, Muhammad Mustafa: **The History of the Qur'ânic Text from Revelation To Compilation**, United Kingdom: UK Islamic Academy, 2011, pp. 338-351.

(15) سورة النساء: 82.

(16) السيرافي: **أخبار النحويين البصريين**، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، القاهرة: دار الاعتصام، 1985، ص 44.

(17) كما أثبت ذلك تشومسكي، ينظر: Chomsky, Noam: **Syntactic Structure, The Hague: Mouton Publisher**, 1971, p. 19; Chomsky, Noam: **Aspect of the theory**, Massachusetts: The MIT Press, 1995, p. 4.

(18) - Aspect of the theory, p. 64.

(19) ينظر: Yaacob, Solehah: ''The Connection between Ma'ani Nahwi in Arabic And the Idea of Modistae in Latin: Historical Linguistic Analysis'', **International Journal of Humanities**, Common Ground Publishing Pty Ltd: Issue 12, 2008.

(20) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق: فؤاد علي منصور، ج 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998، ص 29.

(21) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج 1، ص 28–29.

(22) - See the critique of the traditions relating to Jurhum and his offspring in the book of the Dutch scholar Dozy 1864:146 and ff. (in the chapter: De tweede Gorhoem''). See History of Grammar among the Arabs, p. 45.

(23) - History of Grammar among the Arabs, p. 5.

(24) سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر: **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام هارون، ط 3، ج 1، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1988، ص 13.

(25) ضيف، شوقي: **المدارس النحوية**، القاهرة: دار المعارف، 1995، ص 20.

(26) عبارة عن ضمة مائلة إلى الفتح، يمكن وصفها بأنها تماثل نطق حرف O بالإنجليزية.

(27) عبارة عن كسرة مائلة إلى الفتح، يمكن وصفها بأنها تماثل حرف É بالفرنسية.

(28) عندما أشار إلى أعمال المستشرق الفرنسي آبيه مارتن (1869، 1872م) 427–451، ينظر: History of Grammar among the Arabs, p. 6.

(29) - History of Grammar among the Arabs, p. 6.

(30) سورة التوبة: 3.

(31) سورة المائدة: 38.

(32) سورة الأنعام: 137.

(33) سورة طه: 63.

(34) سورة النساء: 162.

(35) سورة البقرة: 62.

(36) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: **الاقتراح في أصول النحو**، تحقيق: محمد حسن الشافعي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998، ص 24.

(37) - Al-Azami, Muhammad Mustafa: **The History of the Qur'ânic Text from Revelation To Compilation,** Jakarta: Gema Insan Press, 2005, p. 167.

(38) - History of Grammar among the Arabs, p. 6.

(39) ينظر: الصفحة الرابعة من هذا البحث.

(40) المدارس النحوية، ص 16– 17.

(41) الأنباري: **الإنصاف في مسائل الخلاف**، ط1، ج 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998، ص 177.

(42) - History of Grammar among the Arabs, p. 33.

(43) المدارس النحوية، ص 18– 19.

(44) ابن سلام، محمد الجمحي :**طبقات فحول الشعراء**، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة: دار المعارف، 1973، ص 12؛ المدارس النحوية، ص 20.

(45) ابن النديم، محمد بن إسحق: **الفهرست**، تونس: دار المعارف، 1994، ص 102.

(46) المدارس النحوية، ص 18.

(47) المدارس النحوية، ص 13– 22.

(48) القفطي، علي بن يوسف: **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج 1، القاهرة: دار الكتب، 2005، ص 344– 355.

(49) المدارس النحوية، ص 174.

(50) المدارس النحوية، ص 192– 195.

(51) ناصف، علي النجدي: **سيبويه إمام النحاة**، القاهرة: عالم الكتب، 1979، ص 95–99.

(52) ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل: **شرح ابن عقيل**، ج 1، بيروت: دار الفكر، 1998، ص 500.

(53) سورة يونس: 58.

(54) سورة العنكبوت: 12.

(55) ابن الحاجب: **الكافية في النحو**، شرحه: الرضي، ج 1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1986، ص 334.

(56) الكافية في النحو، الفصل الأخير في نواصب المضارع.

(57) - History of Grammar among the Arabs, p. 34.

(58) - History of Grammar among the Arabs, p. 35.

(59) أوّل محقق لكتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، وهو أوّل مستشرق شكّك بوجود مدرسة الكوفة، ينظر: المدارس النحوية، ص 155.

(60) المدارس النحوية، ص 155.

(61) الزبيدي، سعيد جاسم: **القياس في النحو العربي: نشأته وتطوره**، عمّان: دار الشروق، 1997، ص 48.

(62) الاقتراح في أصول النحو، ص 201.

(63) الطنطاوي، محمّد: **نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة**، بيروت: عالم الكتب، 1997، ص 89.

(64) - History of Grammar among the Arabs, p. 34.

(65) - History of Grammar among the Arabs, p. 35.

(66) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ص 114.

(67) تمّ قبول هذه القراءات المختلفة في مدرسة الكوفة.

(68) الكتاب، ج 1، ص 148.

(69) شرح ابن عقيل، ج 1، ص 459.

(70) شرح ابن عقيل، ج 1، ص 167.

(71) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج 1، ص 114.

(72) - History of Grammar among the Arabs, p. 35.

(73) الكتاب، ج 3، ص 477–478.

(74) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: **المقتضب**، تحقيق: حسن حمد وإميل يعقوب، ج 3، بيروت: دار الكتب العلمية، 1999، ص 234.

(75) قراءة للآية ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾، سورة يونس: 58.

(76) سورة العنكبوت: 12.

(77) شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، ج 3، ص 161– 162.

(78) الكتاب، ج 3، ص 381.

(79) الكتاب، ج 2، ص 185.

(80) السيوطي: **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، بيروت: دار الكتب العلمية، 2004، ص 337.

(81) المخزومي، مهدي: **مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة العربية**، بيروت: دار الرائد العربي، 2002، ص 115.

(82) الإستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن: **شرح الرضي على الكافية**، ج 2، بيروت: دار الكتب العلمية، 1986، ص 311.

(83) ابن هشام، جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف: **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، ج 1، بيروت: المكتبة العصرية، 1999، ص 314.

(84) القياس في النحو العربي نشأته وتطوره، ص 76.

(85) مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة العربية، ص 394.

(86) المدارس النحوية، ص 157.

(87) - History of Grammar among the Arabs, p. 36.

(88) المدارس النحوية، ص 21

(89) شرح ابن عقيل، ج 1، ص 383.

(90) - History of Grammar among the Arabs, p. 39.

(91) - National Geographic Society: **Ancient Greece**, Washington D.C.: National Geographic Society, 1999, p. 8.

(92) ابن كثير، إسماعيل بن عمـــر: **البداية والنهاية**، ج 1، القاهرة: دار الفجر للتراث، 2002، ص 34.

(93) أمين، أحمد: **ضحى الإسلام**، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة، 1978، ص 313؛ والمخزومي، مهدي: **الخليل بن أحمد الفراهيدي: أعماله ومنهجه**، بيروت: دار الرائد العربي، 1986، ص 68.

(94) - Wright, William: "Syriac Literature", **The New Encyclopaedia of Britannica Chicago**, Encyclopaedia Britannica, Inc.: vol. 2, 1998, p. 470.

(95) - History of Grammar among the Arabs, p. 39.

(96) - History of Grammar among the Arabs, p. 40.

(97) - History of Grammar among the Arabs, p. 40.

(98) - History of Grammar among the Arabs, p. 43.

(99) يعقوب، صالحة: **دراسة نقدية في التفكير النحوي العربي**، القاهرة: دار السلام، 2014، ص 135-142.

(100) دافعت الفلسفة اليهودية أيضاً عن فكرة كون اللغة وحياً سماوياً لا اتفاقاً واصطلاحاً بين البشر، ينظر:

- Halevi, Kuzari 11.8. [Instead, it seems to be at 11.67-68]. Duran Ma'ase. See History of Grammar among the Arabs, p. 42

(101) أفلاطون من المؤيدين أيضاً لكون اللغة وحياً، أما تلميذه أرسطو فيرى أنّ اللغة وضع واصطلاح.

(102) روّاي، صلاح: **فقه اللغة وخصائص العربية وطرائق نموها**، القاهرة: دار الهاني، 1993، ص 6.

(103) فقه اللغة وخصائص العربية وطرائق نموها، ص 34؛ أي أنّ الله وفّق وألهم ولقّن وعلم آدم كلّ ما يتعلق باللغة كتقطيع الأصوات وبيان الكلمات ووضعها بإزاء معانيها الدالة عليها.

(104) فقه اللغة وخصائص العربية وطرائق نموها، ص 47.

(105) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج 1، ص 8.

(106) ابن جني: **الخصائص**، تحقيق: عبد الحكيم بن محمد، ج 1، القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت، ص 41.

(107) سفر التكوين، الإصحاح الثاني، الآيات 18- 20، وينظر:

- http://st-takla.org/pub_oldtest/Arabic-Old-Testament-Books/01-Genesis/Sefr-Al-Takween_Chapter-02.html>.

(108) سورة البقرة: 31.

(109) سورة الروم: 22.

(110) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج 1، ص 9.

(111) فقه اللغة وخصائص العربية وطرائق نموها، ص 42.

(112) الخصائص، ج 1، ص 40؛ والمزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج 1، ص 10.

(113) ينظر: Idel, Moshe: **Language, Torah and Hermeneutics in Abraham Abulafia**, New York: State University of New York Press, 1989, p. 17.

(114) - Versteegh, Kees: **Landmarks in Linguistic Thought 111**, N.p: n.p, n.d, p. 107.

(115) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج 2، ص 47.

(116) الخصائص، ص 56.

(117) ابن فارس، أبو الحسين أحمد: **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة: دار الكتب، 1977، ص 6.

(118) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص 7.

(119) - Language, Torah and Hermeneutics in Abraham Abualfia, p. 13.

(120) - Kees Versteegh.

(121) - Landmarks in Linguistic Thought 111, p. 113.

(122) - Landmarks in Linguistic Thought 111, p. 113.

(123) - History of Grammar among the Arabs, p. 43.

(124) - History of Grammar among the Arabs, p. 47.

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت
صدر العدد الأول منها في يناير عام 1975م

رئيس التحرير

أ. د. بـدر عمـر العمـر

ترحـب المجلة بنشر البحوث والدراسات العلمية المتعلقة بشؤون منطقة الخليج والجزيرة العربية في مختلف علوم البحث والدراسة .

ومن أبوابها

- البحوث العربية.
- البحوث الإنجليزية.
- عرض الكتب ومراجعتها .
- البيبلوجرافيا العربية.
- ملخصات الرسائل الجامعية: ماجستير - دكتوراه.
- التقارير : مؤتمرات - ندوات

الاشتراكات

ترسل قيمة الاشتراك مقدماً بشيك لأمر - جامعة الكويت
مسحوب على أحد المصارف الكويتية

داخل دولة الكويت : للأفراد : 3 دنانير - للمؤسسات : 15 ديناراً
الـــدول الـعـربـيـة : للأفراد : 4 دنانير - للمؤسسات : 15 ديناراً
الـدول الـغير عـربـية : للأفراد : 4 دنانير - للمؤسسات : 15 ديناراً

توجه جميع المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

Tel.: (+965) 24833215 - 24984066 - 24984067 Fax: (+965) 24833705 P.O. Box 17073 Al-Khaldiah, 72451 Kuwait
www.pubcouncil.kuniv.edu.kw/jgaps E - mail : jgaps@ku.edu.kw
w w w . k u . e d u . k w